# التّكامليّة الطّبيعيّة بين القوميّة اللّبنانيّةوالأمّةالعربيّة

**بقلم د. سلطان ناصر الدّين**

جاء في سفر التّكوين: "فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم".[1]

وجاء في القرآن الكريم: "والتّين والزّيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم". [2]

وجاء أيضًا: "وإذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشرًا من صلصالٍ من حمإٍ مسنون، فإذا سوّيته ونفختُ فيه من روحي فقعوا له ساجدين".[3]

وورد:" إنّا عرضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال، فأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشفقن منها، وحملها الإنسان".[4]

إذًا، الإنسان كائن حيّ له جانب مادّيّ محسوس، وجانب روحيّ معنويّ مجرّد. الجانب المادّيّ طين وصلصال تجلّى بجسم وجوارح. والجانب الرّوحيّ المعنويّ عقل وإيمان ووجدان ونفس وروح.

وإذا كان ما بين النّوى والثّمرة قِطْمير هو الواصل بينهما، فإنّ ما بين الجانب الجسديّ والجانب المعنويّ وساطة هي الدّماغ.

والإنسان يحيا بقواه المادّيّة والمعنويّة ليؤدّي الأمانة، ليؤدّي الرّسالة، وذلك في إطارين متناغمين مع جِبِلّته: الإطار المكانيّ المحسوس المتناغم مع الجانب المعنويّ، والإطار الزّمانيّ المجرّد والمتناغم مع الجانب المعنويّ.

من هنا، كان الإنسان في مكان محدّد يعيش فيه في خدمة الأرض كلّها. هذا المكان المحدّد هو الوطن.

يقول بولس سلامة:"إنّ المسيح أحبَّ وطنه، فبكى على أورشليم، وإنّ طه (محمّدًا) قال يوم هجر مكّة:" اللّهم، أخرجونا من أحبّ البقاع إلينا، فأنزلنا أحبّ البقاع إليك". [5]

والوطن قوميّة، ومن مجموع القوميّات تنشأُ أمّة، ومن مجموع الأمم تتكوّن الإنسانيّة.

إنّ التّكامليّة الطّبيعيّة بين القوميّة اللّبنانيّة والأمّة العربيّة وصولًا إلى الإنسانيّة هي قانون طبيعيّ، إن سرنا به حقّقنا المبتغى، وإن خالفناه أخفقنا وسرْنا القهقرى.

إنّ هذه النّظرة الفلسفيّة "تساعدنا على التّفكير في نمط تفكيرنا"[6]. يقول كمال يوسف الحاج:" نحن بشر على وجه الأرض. إذًا ، من حقّنا أن يكون لنا رأيٌ في هذا الوجود. ثمّ نحن شعب عريق في الزّمان والمكان. إذًا ، من حقّنا أن يكون لنا رأيٌ في واقع هذا الكون"[7].

ولإلقاء الضّوء على فكرة " التّكامليّة الطّبيعيّة بين القوميّة اللّبنانيّة والأمّة العربيّة"،

ثمّة نقاط ستّ هي:

1- التّكامليّة قانون طبيعيّ

2- القوميّة اللّبنانيّة كيان ذاتيّ

3- اللّغة العربيّة روح الأمّة

4- الإنسان جوهر ووجود

5- من القوميّة اللّبنانيّة إلى الأمّة العربيّة إلى الإنسانيّة مسار طبيعيّ

6- لبنان يحيا بالقانون الطّبيعيّ

**1- التّكامليّة قانون طبيعيّ:**

ثمّة قوانين طبيعيّة ملائمة لطبيعة الكوكب الّذي نعيش عليه.

هذه الكرة الأرضيّة تسير وفق قانون طبيعيّ.

الشّمس ترسل حرارتها وضوءها إلى الأرض وفق قانون طبيعيّ.

السّحاب يُنزل الغيث وفق قانون طبيعيّ.

البذرة تنمو وتكبر لتصبح نبتة وفق قانون طبيعيّ.

التّكاثر قانون طبيعيّ.

إذا عمل الإنسان حامل الأمانة وفق القوانين الطّبيعيّة حقّق المبتغى، وإن خالفها حصد الخيبة.

فإذا حفظ الإنسان الأرض أشجارها ونباتاتها ولم يُسرف في التّلويث أدّى الغلاف الجوّيّ وظيفته، فكانت حرارة الشّمس طبيعيّة. وإذا عبث الإنسان في قطع الأشجار والنّباتات، وأسرف في التّلويث يَحدثُ خللٌ في الغلاف الجوّيّ، فتزداد حرارة الشّمس، وتكون النّتائج وخيمة.

والإنسان حامل الأمانة يستطيع أن يضع قوانين، أن يخلق قوانين، وذلك تماشيًا مع صيرورة الحياة. فإن جاءت هذه القوانين متناغمة مع القوانين الطّبيعيّة "تنظّم أحوال المجتمع، وترتقي بقدرات الكلّ إلى أعلى درجاتها"[8] كانت خيرًا؛ وإن جاءت مناقضة لقوانين الطّبيعة كانت وبالًا.

فقوانين السّير، مثلًا، حاجة فرضتها صيرورة الحياة، وجاءت متناغمة مع القوانين الطّبيعيّة.

وقوانين الزّواج المثليّ، مثلًا، جاءت متناقضة للقوانين الطّبيعيّة، فكانت وبالًا على آل لوط في ما مضى، وستكون وبالًا على المحدثين من آل لوط.

التّكامليّة مصدر صناعيّ من الفعل "تكامل". والمصدر الصّناعيّ ينقل الكلمة من الفعل المحسوس إلى المفهوم المجرّد. والتّكامل يتطلّب وجود شيئين أو أكثر يكمّل البعض الآخر.[9]

التّكامليّة قانون طبيعيّ يحدث بين الشّمس والأرض، بين السّحاب، بين البذرة والتّراب، بين الذّكر والأنثى.

والتّكامليّة تتجلّى في نشوء الوطن، نشوء القوميّة.

**2- القوميّة اللّبنانيّة:**

إنّ لبنان كيان قوميّ. والقوميّة لفظة مشتقّة من "القوم". القوم وجود، والقوميّة جوهر. والعلاقة بين الوجود والجوهر علاقة تكامليّة طبيعيّة.

وعناصر القوميّة تنقسم متكاملة بين الوجود والجوهر. أمّا عنصرا الوجود فهما المكان- الأرض والاقتصاد. وأمّا عنصرا الجوهر فهما الزّمان- التّاريخ واللّغة. واللّغة هي الّتي تجعل السّكّان قومًا.[10]

يقول كمال يوسف الحاج:" المجتمع قطر صالح وقوم مؤهّلون. القطر الصّالح أرض واقتصاد، والقوم المؤهّلون تاريخ ولغة. تلك هي القوميّة".[11]

ولا ضير، إذًا، إذا قلنا: القوميّة اللّبنانيّة، والقوميّة التّونسيّة، والقوميّة المصريّة، والقوميّة الجزائريّة. لا ضير من أن تتكامل عناصر القوميّة عند كلّ قوم، تتكامل وجودًا، ففي تكاملها حبّ وخير. يقول أمين نخلة:" إنّ لقدميّ في مَسّ تراب الوطن لطف الشّفاه! ويا حبّذا ذلك التّقبيل"[12]. ويقول الإمام عليّ بن أبي طالب: "عُمّرت البلدان بحبّ الأوطان" [13].

ويقول أمين الرّيحانيّ:" قرأت مرّةً أنّ غالينوس كان يقول: أجود هواء في الدّنيا هو هواء بلد اليونان. وقال ابن رشد: إنّ أجود هواء لَهواء قرطبة. وقال مِلْتن: إنّ الهواء النّقيّ المُحيي لا يهجر لندن أبدًا. وأقول أنا: إنّ هواء لبنان لَهو نَفَس الآلهة بالذّات"[14].

إذًا، لبنان كيان قوميّ وجودًا وجوهرًا، أرضًا واقتصادًا، تاريخًا ولغةً.

ولغته الأمّ العربيّة هي روحه وروح الأمّة.

**3- اللّغة العربيّة روح الأمّة:**

اللّغة ليست "أصواتًا يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"[15] بحسب تعريف ابن جنّي؛ إنّما اللّغة وجدان وهويّة، والوجدان والهويّة جوهر.

الإنسان، كما ذكرنا، جوهر ووجود. اللّغة جوهر وليست وجودًا. يقول كمال يوسف الحاج:" نحن لا نتكلّم اللّغة، إذ اللّغة جوهر، وإنّما نتكلّم اللّسان، إذ اللّسان وجود" [16].

ويقول أيضًا:" لقد درجنا على النّظر إلى اللّغة من الخارج، أي بعد أن تمّ شكلها؛ فإذا بها مجموعة ألفاظ مقروءة. في حين أنّ اللّغة تبدأ من وراء الشّفتين القارعتين. وعليه، اللّغة هي أفعول ديناميّ يرافق الفكر من تحت الوعي، منذ النّبضة الأولى. مع الفكر إذًا – لا بعد الفكر– تنطلق اللّغة، وتتململ، وتتمعّج، وتصعد، وتهبط، فتتّضح بوضوحه، كما يتّضح بوضوحها، ثمّ تكتمل باكتماله، كما يكتمل باكتمالها" [17].

ويرى كمال يوسف الحاج أنّ اللّغة العربيّة هي اللّغة الأمّ للكيان اللّبنانيّ أي للقوميّة اللّبنانيّة وللأمّة. والأمّة هي مجموع قوميّات تربطها اللّغة الأمّ. يقول: "لا نعتقد أن هناك شيئًا كاللّغة الأمّ يعين الإنسان على التّحكّم في سير الزّمان".[18]

ويرى الحاج أن احترام اللّغة الأمّ فعل طبيعيّ يتماشى والقوانين الطّبيعيّة. يقول: "إنّ الدّفاع عن اللّغة القوميّة هو دفاع عن أدقّ ما في وجدان الأمّة"[19].

وها هو أمين الرّيحاني يخاطب الأمّ اللّبنانيّة، بل يخاطب المناهج التّربويّة، يقول: " علّمي أبناءَك محبّة الوطن الحقّة. قولي لهم إنّ الأجنبيّ لا يحترمهم إذا كانوا لا يحترمون أنفسهم. قولي لهم إنّ الأجنبيّ لا يحتقر لغة أجداده، بل يحتقر في قلبه من يحتقرون لغة الأجداد. قولي لهم إنّ اللّسان العربيّ لسانهم، وإنّ اللّغة العربيّة لَمن أشرف لغات الأرض. فليتعلّموها، وليتقنوها، وليعزّزوها." [20]

اللّغة العربيّة جوهر، وهي حاجة للإنسان تتجلّى وجودًا بلسان عربيّ مبين.

**4- الإنسان جوهر ووجود**

إنّ الإنسان ثنويّ [21] أي جوهر ووجود. يقول كمال يوسف الحاج: " إنّ جوهرًا لا ينوجدُ، ووجودًا لا يتجوهر، تنتفي عنهما صفة الجوهر وصفة الوجود. لذا كان على الإنسان، كي يستبقي حياته أن يراوح بين الجوهر والوجود". [22]

الإنسان يبدأ من الذّات نحو المجتمع المؤهّل، نحو القوميّة ثمّ الأمّة ثم الإنسانيّة.

**5- من القوميّة اللّبنانيّة إلى الأمّة العربيّة إلى الإنسانيّة مسار طبيعيّ**

إنّ القوميّة اللّبنانيّة ليست انعزالاً ولا تقوقعًا، بل هي كيان في أمّة، يجمعها جوهر ثمين ألا وهو اللّغة.

إنّ القوميّة اللّبنانيّة هي انطلاق نحو الإنسانيّة عبر الأمّة العربيّة.

يقول كمال يوسف الحاج: " لقد آن لنا أن نتفهّم مشاكلنا القوميّة جدّيًّا، أي فلسفيًّا، لأنّ الفلسفة وحدها قادرة على أن تعلّمنا كيف يجب أن نفكّر، كونيًّا، في حياتنا اللّبنانيّة لتصبح القوميّة تسديدًا نيّرًا نحو المطلق، دون أن تفقد شيئًا من طابعها الرئيسيّ". [23]

ويقول الحاج: " الإنسانيّة هي غاية القوميّة. هي الّتي تضفي على القوميّة قيمة عامّة."[24] ويقول أيضًا: " أنا قوميّ ذهابًا إلى الإنسانيّة عينها." [25]

**6- لبنان يحيا بالقانون الطّبيعيّ**

لبنانُ كيانٌ قوميّ في أمّةٍ ، والأمّة تشكّل واحدة من مجموع الأمم .

القانونُ الطّبيعيُّ هو أن يتكاملَ لبنان كيانًا في عناصرِهِ القوميّة ، وصولًا إلى تكاملِه مع الأمّة العربيّة ، بهدف التّكامل مع سائرِ الأمم.

إنّ التّكامليّة الطّبيعيّةَ بين القوميّة اللّبنانيّة والأمّة العربيّة وصولًا إلى الإنسانيّة قانون طبيعيّ. وجوهر هذا القانون اللّغة الأمّ – اللّغة العربيّة، إذ " بدون اللّغة العربيّةِ لن تكون لنا ، في لبنان عِمارات ذهنيّةٌ تُسابق النّاطحاتِ، ولن تكون لنا وقفاتٌ خالدةٌ في سوق عكاظ العقل".[26]

التّكامليّة الطّبيعيّة بين القوميّة اللّبنانيّة والأمّة العربيّة وصولًا إلى الإنسانيّة هي قانون طبيعيّ:

- عدم السّير وفقه حمّلنا ويُحَمّلنا أعباءً كبيرةً ، ولا مبالغة في ذلك .
- والسّير وفقه يوصلُنا إلى المبتغى الأسمى قوميًّا وعربيًّا وإنسانيًّا وصولًا إلى أعلى علّيّين.
- السّير وفقه يوصلنا إلى لبنان الرّسالة .

يقول ميخائيل نعيمة :" يا نواقيس لبنان ، ويا مآذن لبنان ، ما طربتْ أذني بأنغامٍ كأنغامكِ، ولا اهتزَّ قلبي لنداءٍ كندائِكِ ، ولا ابتهجت روحي لشهادةٍ كشهادتِك ترفعينها في الغداة وفي العشيّ ، في صَخَبِ النّهارِ وفي هَدْأةِ اللّيل ، إلى مَن تحجّبَ عن العينِ والأذنِ وهو في العينِ والأذن ، وعن الفكر والفؤادِ وهو محورُ الفكرِ والفؤادِ ، إلى عِلّةِ الوجود وضميره الحيّ القَيّومِ الرحمنِ الرّحيمِ الّذي نحن على صورتِه ومثاله " [27].

في جمال بلادي حبر أخضر
نكتب فيه الفكر
وفي الإنسان حبر الأبعاد
نكتب فيه الفكر
فيا جمالَ بلادي
ويا أيّها الإنسان
هل للأفكار حياة
خارج هذه الألوان ؟

الهوامش:

(1) الإنجيل المقدّس، سفر التّكوين 1 :27

(2) القرآن الكريم ، سورة التّين ، الآيات 1-2-3-4

(3) القرآن الكريم ، سورة الحِجر ، الآيتان 27،28

(4) القرآن الكريم ، سورة الأحزاب ، الآية 72

(5) بولس سلامة ، حكاية عُمر. بيروت- دار الكتاب اللّبنانيّ . ط2، 1973 ، ص141.

(6) سعيد ناشيد، التّداوي بالفلسفة. بيروت- دار التّنوير. ط1، 2018، ص25

(7) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة. بيروت – مؤسّسة الفكر اللّبنانيّ. ط1 ، 2014، المجلّد 11، ص53

(8) جان جاك روسو، العقد الاجتماعيّ (نقله إلى العربيّة عبد الكريم ناصيف). دمشق- دار الفرقد. ط1، 2018، ص52-53

(9) أنطوان نعمة وآخرون ، المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة . بيروت – دار المشرق . ط1، 2000 ، ص1249 -1250.

(10) كمال يوسف الحاج ، المؤلّفات الكاملة، المجلّد 7، صفحات 58-60-63-64

(11) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد 10، ص 51

(12) جوزف لبّس ، تفّاح من ذهب في سلال من فضّة . لبنان – دير الزّهراني – دار البنان . ط3 ، 2019 ، ص364 .

(13) محمّد شهري ، ميزان الحكمة . قم – مركز انتشارات . ط1، 1371 هـ . المجلّد 10 ، ص 522.

(14) أمين الرّيحاني، القوميّات، الجزء الأوّل، بيروت- دار الرّيحاني، ط1" 1956، ص 31-32

(15) ابن جنّي، الخصائص ( تحقيق محمّد علي النّجّار). بيروت – دار الكتاب العربيّ . لا. ت. الجزء الأوّل، ص 43.

(16) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد5، ص87

(17) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد5، ص86

(18) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد 5، ص 375

(19) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد 5، ص 375

(20) أمين الريحاني، التّطرّف والإصلاح. بيروت- مطابع صادر ريحاني، ط3، 1950، ص 50-51

(21) فلادمير جيكارنتسيف، بنية وقوانين الكون الثّنويّ (نقلها إلى العربيّة وفيق حسن). دمشق – در الفرقد. ط1، 2018، ص21

(22) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد 5، ص152

(23) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد 5، ص 126

(24) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد 7، ص 95

(25) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد7، ص37

(26) كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، المجلّد 5، ص 522

(27) ميخائيل نعيمة، النّور والدّيجور. بيروت– مؤسّسة نوفل. ط7، 1988، ص 222–223

المصادر والمراجع:


1- الإنجيل المقدّس.

2- القرآن الكريم.

3- ابن جنّي، الخصائص ( تحقيق محمّد علي النّجّار). بيروت – دار الكتاب العربيّ . لا. ت.

4- أمين الرّيحانيّ ، التّطرّف والإصلاح . بيروت – مطابع صادر ريحاني . ط3، 1950.

5- أمين الرّيحاني، القوميّات. بيروت– دار الرّيحاني. ط1، 1956.

6- أنطوان نعمة وآخرون ، المنجد في اللّغة العربيّة المعاصرة . بيروت – دار المشرق . ط1، 2000.

7- بولس سلامة ، حكاية عُمر. بيروت– دار الكتاب اللّبنانيّ . ط2، 1973.

8- جان جاك روسو، العقد الاجتماعيّ (نقله إلى العربيّة عبد الكريم ناصيف). دمشق– دار الفرقد. ط1، 2018.

9- جوزف لبّس ، تفّاح من ذهب في سلال من فضّة . لبنان – دير الزّهراني – دار البنان . ط3 ، 2019 .

10- سعيد ناشيد، التّداوي بالفلسفة. بيروت– دار التّنوير. ط1، 2018.

11- فلادمير جيكارنتسيف، بنية وقوانين الكون الثّنويّ (نقلها إلى العربيّة وفيق حسن). دمشق – در الفرقد. ط1، 2018.

12- كمال يوسف الحاج، المؤلّفات الكاملة، بيروت – مؤسّسة الفكر اللّبنانيّ. ط1 ، 2019.

13- محمّد شهري ، ميزان الحكمة . قم – مركز انتشارات . ط1، 1371 هـ .

14- ميخائيل نعيمة، النّور والدّيجور. بيروت– مؤسّسة نوفل. ط7، 1988.

Edwin Martinez | 2017